## م4: النقد الثقافي

**تمهيد:**

لقد سيطر النقد الأدبي لعقود من الزمن ــ منذ بروز المناهج والنظريات النقدية في العصر الحديث ــ على الساحة النقدية، حيث اجتهد النقاد في التأسيس لعدة مناهج ونظريات نقدية تسعى إلى دراسة النص الأدبي وكشف مكنوناته وتأويله، وعلى هذا الأساس أدى النقد الأدبي دورا بالغ الأهمية "في الوقوف على جماليات النصوص، وفي تدريبنا على تذوّق الجمالي وتقبّل الجميل النصوصي"[1]، وذلك لأن منظور النقد الأدبي إلى الأدب بقي في إطار اعتبار النص الأدبي خطابا ينمّ عن إبداع لغوي يؤسس الجمالي لا غير ذلك.

إن التأني قليلا وطرح سؤال بسيط، ربما سيدفعنا إلى اكتشاف شيء آخر لم نعهده في النص الأدبي، وهو نفسه السؤال الذي طرحه الغذّامي، "هل في الأدب شيء آخر غير الأدبية...؟"[2]. إذا أقررنا بوجود شيء آخر في الأدب غير الأدبية، فإنه الأمر سيدفعنا إلى القول "بمحدودية النظرة الجمالية (البلاغية)"[3] التي ظل النقد الأدبي قائما عليها.

لا يمكن أن ننكر وجود أنساق ثقافية تختبئ وراء عباءة الجمالي، أي أن النص الأدبي وإن كان في ظاهره خطابا جماليا إلا أنه يحوي أنساقا ثقافية، كان لها تأثير حتى على حياة الإنسان، حيث كان الأدب سببا في ترسيخها على صعيد ثقافات الشعوب. إذا سلمنا بهذه الحقيقة، فإن الأمر يقودنا إلى استبدال النقد الأدبي بأداة أخرى غيره، تمكننا من كشف أنساق

---

[1] : عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2005، ص7.

[2] : المرجع نفسه، ص13.

[3] : المرجع نفسه، ص14.

الخطابات، ما دام النقد الأدبي نفسه ليس قادرا على أداء هذه المهمة، ولا شك أن البديل في هذه الحالة سيكون النقد الثقافي.

**1ــ مرجعيات النقد الثقافي:**

تعددت المرجعيات النظرية المؤسسة للنقد الثقافي، لكن أهم الروافد التي شكّلت منطلقا له وتأثيرا مباشرا في نشأته، هي:

ــ **مدرسة فرانكفورت:** تشكّلت هذه المدرسة الألمانية على إثر اجتماع مجموعة من الفلاسفة والمفكرين، ومن أهمهم ماكس هوركهايمر، تيودور أدورنو، وهربرت ماركوز...، ويتجلى تأثير هؤلاء في نشأة النقد الثقافي، في تصدرهم المشهد البحثي في أنساق الهيمنة التي كانت تسعى إليها دائما السلطة السياسية، في إطار السعي نحو المحافظة على سيطرتها مانعة أي فكرة قد تتبادر إلى الذهن من أجل تغييرها، ولقد ركّز هؤلاء جهودهم على دراسة وسائل الإعلام من أجل تفسير آليات الهيمنة، ولقد وجدوا في المجتمع الأمريكي الساحة المناسبة من أجل التمثيل لما طرحوه من أفكار نظرية.

ــ **مركز بيرمنغهام:** لقد عمل هذا المركز على إخراج الدراسات الثقافية من المحلية إلى العالمية، حيث ربط مفكرو هذا المركز، وعلى رأسهم: ريتشارد هو غارت، رايموند وليانز...، الثقافة بالمجتمع، ولقد اعتبروا المؤسسة هي التي ترسّخ الثقافة عبر آلياتها التي تفرض عبرها نمطا تفكيريا معينا.

ــ **مثقفي نيويورك:** هي حركة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين، ولقد ربطوا بين الأدب والثقافة، حيث برز فيهم مجموعة من المفكرين، من قبيل: فنسينت ليتش، إدموند ولسون، ليونال تريلينغ، إرفينغ هاو، دوايت ماكدونالد...، ولقد أعلنوا رفضهم هيمنة المؤسسة على الأدب، كما رأوا في التكنولوجيا الوسيلة التي تصنع الإنسان المنمط والسيطرة...

**2ــ النقد الثقافي:**

يعرّف أرثر أيزابرجر النقد الثقافي، فيقول: إنه "نشاط وليس مجالا معرفيا خالصا بذاته، كما أفسّر الأشياء بمعنى أن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات ــ في تراكيب وتباديل ــ على الفنون الراقية والثقافة الشعبية والحياة اليومية وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة بذلك. فالنقد الثقافي كما أعتقد هو مهمة متداخلة مترابطة متعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي وبمقدوره أيضا أن يفسّر نظريات ومجالات علم العلامة ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجيا ودراسة الاتصال وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميّز المجتمع والثقافة المعاصرة وحتى غير المعاصرة"[1]، إن هذا التعريف يقودنا مباشرة نحو تبني نظرة مختلفة عن تلك التي ألفناها عن المناهج النقدية التي اغتنى بها النقد الأدبي، فالنقد الثقافي بهذا المفهوم واسع النطاق ومتعدد المهام ومنفتح على العديد من التخصصات...

إن كل ما سبق يقودنا إلى التساؤل عما إذا كان النقد الثقافي منهجا نقديا أو نظرية نقدية؟ هنا الإجابة تكون بالنفي، فهو "ليس منهجا بين مناهج أخرى، أو مذهبا أو نظرية، كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفّر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا، تولّد معنى أو دلالة"[2]، ليكون النقد الثقافي بهذا قد رفع

---

[1] : آرثر أيزابرجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2003، ص30 ص31.

[2] : صلاح قنصوه: تمارين في النقد الثقافي، دار ميريت، ط1، القاهرة، مصر، 2007، ص5.

الستار بين التخصصات بحجة أنها جميعا تشكّل أو تنتمي إلى الثقافة التي ينتجها الإنسان، وهو ينتمي إلى حقل الدراسات الثقافية التي بلورتها بداية مدرسة برمنغهام الإنجليزية، حيث إنه لا ينظر إلى الخطاب كما ينظر إليه في تخصصات أخرى، بل باعتبار كل الخطابات وسائط ثقافية.

ولقد ظهر النقد الثقافي في إطار ذلك التوجه النقدي الذي تصدى للتوجه النسقي عامة، حيث شكّل جزءا منه، إذ عاصر الكثير من النظريات النقدية التي دعت بدورها إلى تجاوز مبدأ المحايثة الذي طالما أطر النقد النسقي وما أفرزه من مناهج نقدية، فسعى هو الآخر عبر ما طرحه من أفكار إلى تجاوز ما روّج له التوجه النسقي من تركيز على الشكل من جهة، وإلى تجاوز الجانب الفني والجمالي للأدب من جهة أخرى. ومن بين أهم رواد النقد الثقافي: ميشال فوكو، ريتشارد هوجارت، ستيوارت هول، بيير بورديو، فنسنت ليتش...

**3ــ مهمة النقد الثقافي:**

إن السعي وراء تحديد مهمة النقد الثقافي لا تتأتى إلا بمقارنتها بمهمة النقد الأدبي، فإذا كان النقد الأدبي يسعى وراء النص الأدبي لكشف جمالياته وتذوقه، فإن النقد الثقافي "ليس بحثا أو تنقيبا في الثقافة وإنما هو بحث في أنساقها المضمرة وفي مشكلاتها المركبة والمعقدة وبذا فهو نشاط إنساني يحاول دراسة الممارسات الثقافية في أوجهها الاجتماعية والذاتية بل في تموضعاتها كافة بما في ذلك تموضعها النصوصي، ومن هنا يختلف النقد الثقافي عن النقد الأدبي، فالأدوات المنهجية للنقد الأدبي تبحث في بنية النص وفيما هو (بلاغي/جمالي) أما النقد الثقافي فيبحث في الأنساق المضمرة في الخطاب ويتعامل مع النص الأدبي بوصفه حادثة ثقافية كغيرها من الحوادث الثقافية"[1]، وهو ما يجعلنا ننظر في إطار النقد الثقافي إلى النص الأدبي نظرة مختلفة عن تلك التي كننا ننظره بها في إطار النقد الأدبي، بحيث يصبح

---

[1] : سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، مر وتع سمير الشيخ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1971، ص303.

النص الأدبي في هذه الحالة حادثة ثقافية يحوي أنساقا ثقافية ينبغي كشفها من خلال تفكيك الخطاب والتوصّل إلى طريقة تمثّل هذه الأنساق، وهذا الذي لا يتأتى إلى بتجاوز مهام النقد الأدبي الذي طالما اعتنت مناهجه ونظرياته بما هو جمالي في النص الأدبي.

**4ــ النسق الثقافي:**

يأتي الحديث عن النسق الثقافي، انطلاقا من التأكيد أن الخطابات الأدبية وغير الأدبية تحتوي على أنساق ثقافية ظاهرة أو بتعبير آخر واعية وأنساق ثقافية مضمرة، والفرق بين الخطاب الأدبي وغير الأدبي في علاقتها بالأنساق الثقافية، أن هذه الأنساق في الخطاب الأدبي تتقنع بالجمالي والبلاغي من أجل أن تمر.

يعرّف النسق الثقافي على أنه "نسق معرفي اجتماعي فكري يحمل كل ما تفرزه الثقافة في النص أو الخطاب وله حضور أما المضمر فيحيل عليه شيء في النص...، فالنسق الثقافي هو نسق تاريخي أزلي راسخ وله الغلبة وعلامته هي اندفاع الجمهور على استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق"[1]، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن النسق الثقافي يجمع بين وظيفتين، "بين وظيفة التفسير والاستيعاب للتجربة الإنسانية من جهة وبين وظيفة التأثير والتحكم في سلوك الأفراد من جهة أخرى"[2]، فبعد أن يكون النسق الثقافي مفسرا للتجربة الإنسانية للوهلة الأولى، يصبح نسقا مهيمنا يتحكم في أفراد المجتمع الواحد وتصرفاتهم.

---

[1] : المرجع نفسه، ص294.

[2] : المرجع نفسه، ص294.